



من سير
أعلام الشهداء

19

أَبُو نَاصِرِ اللَّيْبِيِّ

﴿ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴾



أَسَدُ الْجَوْلَانِ أَبِي نَاصِرِ اللَّيْبِيِّ

هو البطلُ الهمام، والقائدُ المغوار، أَسَدُ المعارك، ورجُلُ المواقف، مَنْ ترمقُهُ العيون في الشَّدائد، وتَسْتَبِرُّ به الأبطال في المصائب، حاتمٌ في الكرم، حمزةٌ في الشَّدائد، عُمَرُ في أمر الله، أبو ذرٌّ مع إخوانه، يملأ العين مهابةً، والقلب محبةً، والنَّفوس شجاعةً، أَسَدُ الفلَّوجتين وبطلُ الجولان، فمن هو هذا الرجل؟.

لحياة صاحبي (محطات) بدأها بالصَّبْرِ وختَمَهَا بالشَّجاعة، والصَّبْرُ والشَّجاعة صُنُونِ فلا شجاعةٌ بلا صَبْرٍ.

وقصَّة الصَّبْرِ تبدأ عندما تعرفتُ على الحبيبِ الشَّهيدِ وقد حَطَّ رِحَالُهُ بالفلَّوجة قبل المعركة الأولى بسنةٍ أشهرٍ تقريباً، غير أنَّ الشَّهيد كان في ذلك الوقت قد أخطأ المكان، أعني من لجأ إليه مِنْ أهل تلك المدينة فجاء إليَّ وقد جُرِّدَ من جميع ماله لسببٍ أو لآخر. نَعَم مَالُهُ، فقد كان الشَّهيد وحيداً أمَّهُ، فلقد مات أبوه وترَكَه مع بنات يعولُهُم الخال، ولكنَّ الرَّجُلَ عمل بالتجارة وفتح محل لبيع الملابس وبعد رحلات مكوكية بين تركيا وفرنسا وإيطاليا أسَّس عملاً تجارياً جيِّداً مع خاله، لكن الخال والإبن أعني أبا ناصر (فالخال والد) قرَّرا الجهاد بالنَّفْس والنَّفيس، فباع أبو ناصر وخاله ما لهما من تجارة وشَدًا الرِّحال إلى العراق، بعدما استأذن البطلُ أمَّهُ والتي امتلأ وجهها بشراً وسروراً قائلة له: لكن سلِّم لي على والدك في الجنَّة عسى أن ألحق بكما وتكون لي شفيعاً، أَلستُ أول من تشفع له يا ولدي؟.

تعانقا والبكاء - لغة المَحِبِّ - كان سيِّد الموقف ومَنْ حولهما أخواته ييكونه ويدعوته. التحق أبو ناصر ببيت أبي عبد الله الشامي مع إخوة له صالحين ينتظرون اليوم الذي يخرجون فيه يُزغردون بسلاحيهم غير أنَّ ذلك اليوم تأخَّر، عذراً نسيت أن أقول وما أنساني إلا الشيطان، أن أبا ناصر قبل أن يُودَّع الفلَّوجة إلى بغداد كان قد ودَّع خاله إلى جنَّات عدنٍ عند مليكٍ مقتدرٍ نحسبه والله حسيبه، حيث خرجا في معركةٍ مع الأمريكان



بالقرمة استشهد فيها خاله ونجا الشهيد، لكنه تعلم الدرس الأول: " أن التّعجل وسوء التخطيط عواقبه غير محمودة وأن القيادة لها ما لها في المعارك ".

وببغداد سئم أبو ناصر من الانتظار فقد طال ثلاثة أشهر، غير أنني كنت أفرس فيه النجاة، فقلت له يا أخي اسمع مني لعل الله يوفّقك لعمل يرضيه عنك فاصبر، لأنك لو خرجت من هنا هل تستطيع أن تقاتل في غيرها.

وكنت أقول له ولغيره وبعد تجارب مريرة كثيرة: والله لو أعلم أنني سأضرب طلقة في نحر عدو بعد عام لانتظرت حتى أضربها لأني أعلم أني لا أستطيعها في مكان آخر، ولو استطعت ففي مدة أكثر من هنا.

وانتظر الشهيد وجاءت الفلوجة الأولى ولحق مع من لحق بها من المقاتلين وبدون ترتيب مسبق وجدت نفسي وإياه في الجولان والقصة طويلة.

غير أنني هنا أحب أن أقول شهادة لله ثم للتاريخ قد يظن القارئ أنه ليس لها علاقة بالموضوع، وهي كيفية التحاقنا بالجولان، وليعلم الناس شرف القائد وعلى الخصوص (عمر حديد) لما دخل الأمريكان أطراف الفلوجة بعد حادثة المدربين الأربعة وكنتم حاضراً على قصّتهم.

أقول جاء الأمريكان فجأة إلى أطراف الجولان فلدّجأت إلى بيت الشهيد القائد عمر حديد فإذا به يزأر في إخوانه وأولاد عمّه هيا اخرجوا بسرعة كل واحد يأخذ سلاحه فتنازعت أنا وأخوه سلاح كلاشنكوف بلا جعبة، فقط السلاح وشاجور وحيد، مرة أحمله ومرة يحمله، حتى فتح الله عليّ في أول يوم بسلاح غنيمة من الحرس الوثني.

أقول خرج عمر وإخوانه مكشوف في الوجوه والناس في عجب يقولون لهم غطّوا وجوهكم والرجل يقول وبصوت عالٍ اخرجوا دافعوا عن دينكم عن عرضكم عن أرضكم ولا حراك لأحدٍ فأشفقت على عمر، ماذا لو سيطر الأمريكان؟!، ماذا لو دخلوا ووشى به الواشون؟ لكن الرجل كان يريد الله أحسبه والله حسيبه لذلك رفعه الله في الدنيا وإنه إن شاء الله في الآخرة أرفع.



أقول لَجئنا إلى الجولان وبدأت المعركة حامية الوطيس وبدأت حِمَمُ النَّارِ تُصَبُّ على المدينة واستطاع أبطال الجولان وعلى رأسهم أبو ناصر وأبو عمّار السُّوري الأمير أن يحققوا أوّل مكسبٍ في أوّل تجربةٍ كانت الفصل.

تمّ تمييز الطَّيران الهليكوبتر (السَّمْتية) فحال دخولها مجال المجاهدين أمطروها بوابلٍ من رصاص البيكا والكلاشن فهوت أوّلها.

وفرَّ بقيتهم، فكبرنا وكبرنا وحمَدنا الله، وبعدها تجرَّئنا على العدوِّ وتمَّ انسحاب السَّمْتيات من المعركة، ودارت الحربُ وكان لأبي ناصر السُّبق حيثُ أُسند إليه إمرة سرّية من سرايا الجهاد المرابطة حذاء العدوِّ والتي يتنزّل فيها الموت كالسَّيل الجارف، وحينئذ وفي صباح أحدِ الأيام جاء أحدُ الإخوة يقول سمعت في الحراسة دَقّاً خفيفاً منتظماً يصدر من هذا البيت أظنُّ أنهم قناصة تقدموا في الظلال وسيطروا على البيت لأن المنطقة حينها كانت خالية من السكّان، فأرسلتُ من يتحقق من ذلك من جهة الإخوة الأكراد فأكدوا الخبر، فاجتمعنا وعلى رأسنا أبو عمّار السُّوري الأمير وأبو ناصر وأمير الأكراد جُنْد الله وبعد الاستشارة أجمع الرأى أنه لا بد من مهاجمة البيت لأسباب كثيرة أهمّها: أنَّ القناصة إذا سيطروا عليه شلّوا حركتنا واقترب العدوُّ أكثر، ولا بُدَّ من التضحية، فتمَّ ترشيح أبو ناصر ليكون أميراً على سرّية الاقتحام وتمَّ تحديد كيفية الهجوم وأفراد المجموعة وودّعهم على بركة الله وكان من المنتظر أن تبدأ العملية بعد ساعة فجاء من يقول أن أبا ناصر حُوصِرَ هو ومن معه، وسرى الخبر في الجولان وانتشر انتشار النَّار في الهشيم ففزَع النَّاسُ إلينا وكان ممَّن فزع عمر حديد والشيخ أبو انس " تقبلهما الله " وغيرهم من أفاضل وأكابر الإخوة المجاهدين.

وبالفعل رأينا السَّمْتية تنادي بالمكبّرات أنّكم محاصرون وأننا سوف نُبيدكم خلال نصف دقيقة، فزحفت المجموعات باتجاه الإخوة وجاء إلينا المجاهدون من كل صوبٍ وتمَّ توزيع النَّاس لفقِّ حصار الإخوة.

وبينما نحن كذلك إذا بالتكبير ينطلق من الداخل وقذائف الـ RBG تهَّدَّ حصون العدوِّ علامة أن هجوم أبو ناصر بدأ وليبشّر أن القوم غير محاصرين، وبعد نصف ساعة



من الاشتباك سيطرَ أبو ناصر على بيت القنّاصة، وكان هناك بيت آخر مجاور لم يكن يعلمُ الإخوة وجودَ أمريكيّان فيه، حيث قاموا بفتح النَّار على أبي ناصر ومجموعته إلا أنَّ الله سلّمَ وغنمَ الإخوة أسلحة القنّاصة وقتلوا من داخل البيت ورجع أبو ناصر بشهيدٍ وجريحٍ فوجد النَّاس في انتظارهم، فقال ما لكم؟ قالوا ظننّاك حوصرت، قال: الحمد لله؛ لا، وهذا البيت تَنَاقَلتُهُ وسائل الإعلام تصويراً.

وفي تلك الأثناء بدأت أكبر معارك الجولان وأشدّها ضراوةً وأطولها مُدّةً، لكن لأنّ المشيئة الإلهية هي التي تُدبّر وتُوفّق، ونظراً لأنّ النَّاس قد اجتمعوا لأجل فكِّ الحصار وسدّوا الثغرات تمَّ صدّ الهجوم وتكبيد العدوّ خسائرَ فادحة في الأرواح والمعدات، حيث تمَّ تدمير دبابتين ومُدْرعة وأُسْقِطت طائرةٌ والحمد لله وهذا من تدبير الله لنا، إذ لو جاء العدوّ بهذه القوّة قبل قضية الحصار بدقائق لدخلوا الجولان بكل سهولة، لكن الله هو المُوفق والمُسدّد والمُدبّر فمعركة الفلّوجة كان لها ما لها.

ثم مضت الفلّوجة الأولى، وبين المعركتين أعني الفلّوجة الأولى والثانية انشغل أبو ناصر بأمرٍ آخر، حيث قام بتدريب عددٍ كبيرٍ من الإخوة على تصنيع المتفجرات وتشكيل سرايا للقتال خارج العراق وتمَّ له ما أراد.

فلعلَّ الله يسمعنا عنهم خيراً قريباً إن شاء الله.

ومضت المعارك ضارية وخاصةً قبل موعد الفلّوجة الثانية بشهرٍ أو شهرين فتم تنظيم الحماية للمدينة وتوزيع الكتائب لحماية مداخلها فأُسندت الصّناعة للقائد عبد العزيز، وجبيل للقائد أبي ياسر، والعسكري للقائد أبي عبّيدة رحمه الله، والشهداء للقائد أبي عبد الله التونسي، وأخيراً وأهمّ النَّقاط الجولان للقائد الشّهيد أبي ناصر، وحتى لا أُطيل قام الشّهيد بترتيب مجموعته على قدر المستطاع إلا أنّ هذه الكتيبة كانت أحدث الكتائب تشكياً والتحق بها معظم الإخوة الجُدُد من قلبي الخبرة، وفجأة دقَّ ناقوس الخطر واشتعلت نيران الحرب وبدأت الفلّوجة الثانية، وحدثَ الاختراق المعروف للجبهة من جهة (الجعيف) النَّقطة الوحيدة من الجبهة التي تركناها لغيرنا، والحقُّ يُقال أنّهم أيضاً ما قصّروا ولكن هذا جُهدهم والله يعفو عنّا وعنهم.



دَخَلَ العدوَّ وحاصرَ الجولانَ وانتشرَ القناصةُ فجأةً خلفَ ظهورِ الإخوةِ وسيّطروا على كافةِ الطّرقِ والتّقاطعاتِ، وحتىّ ماآذنَ المساجدُ، وتقدّموا من جهةِ الشّطِّ وقاتلَ أبو ناصر قتالَ الأبطالِ وبدأتِ اللّيوثُ تتساقطُ، فهذا أبو العيّناتُ أميرَ نقطةِ الشّاطي شهيداً يتبعه جاسمُ ابنُ عمِّ عمرِ حديدٍ ثمَّ عبدُ الستارِ أخوهُ وغيرِهِم وغيرِهِم وازدادتِ الجراحُ في الإخوةِ وبدأتِ الدّماءُ تنزفُ ولم يبقَ مكانٌ آمنٌ في ذلكَ الوقتِ إلا القسمُ الجنوبيُّ من المدينة.

فقام أبو ناصر وأبوهمام اللبيّ "رحمة الله عليهما" بعملية بطولية أدهشت الجميع. وضعَ أبو ناصر الجرحى في سيارته البيك أب وقال لأبي همام تَوَلَّ أنتَ أمرَ القيادةِ وسنحاولُ تجاوزَ الشّوارعِ والتّقاطعاتِ والتي ملئتها الدّبّاباتُ والقنّاصةُ وكانتِ الخطةُ أن يتقدّمَ أبو ناصر ويفتحَ خطّاً كثيفاً من النّارِ باتجاهِ الدّبّابةِ من خلالِ الـ B.K.C. وفي تلكَ اللحظةِ يعبرُ أبو همام بالسيارةِ وبالفعلِ تمَّ تنفيذُ الخطةِ وتجاوزَ الإخوانُ أكثرَ من عشرةِ شوارعٍ وتقاطعاتٍ.

ووصلَ إليّ أبو ناصر في حيِّ نزالٍ ففرحتُ بنجاتِهِ ومن معه، وفي تلكَ الليلةِ بتُّ وإياه وأبو همام في بيتٍ واحدٍ مُظلمٍ لا ماءَ فيه، فأشعلتُ ضوءَ كشافٍ لأرى أبا ناصر وأبا همام كأنهما قمرين طلعا وسطَ هذا الظلامِ وتعجبتُ لسرِّ هذا الجمالِ المفاجيءِ، وقد تعلمتُ وخبرتُ أن الأخ إذا حانَ وقتَ استشهاده جَمَلَ خُلُقُهُ ونُضِرَ وَجْهُهُ وصارَ في النَّاسِ شامه، فبدأ لي الإخوانُ في تلكَ الليلةِ كذلكَ فاقشعرتُ جسدي وقلتُ في نفسي: الله غالب.

ورمى حبيبي جسدهُ على الفراشِ واستلقيتُ حذاءه وكان متعباً جداً وهنا قال لي، أمي قالت لي مثلاً: قالت أم لابنها الفقير يا بني لا تأكلُ إلا العسلَ ولا تنامُ إلا على الحريّر، فقال لها: يا أمي كيف ذلك وأنا فقير، قالت له: لا تأكلُ إلا وأنتَ جوعانٌ ولا تنامُ إلا وأنتَ متعب.

وأصبحَ الصّباحُ وتمَّ تشكيلُ سرّيّةِ اقتحامٍ من التّصفِ الجنوبيِّ للتّصفِ الشماليِّ وعيّنتُ عليها أبا ناصر أميراً، وقال له أبو عزام "تقبله الله" أرجو من الله أن تصلي الظّهْرَ في



جامع أبي عبيدة والعَصْر في الفاروق - يعني تفتح الجزء الشمالي حتى تلك التّقاط، وكان ذلك ضرباً من الخيال، وسُبْحان الله صَلَّى أبو ناصر الظَّهر في أبي عبيدة والعصر في الفاروق، إلا أن جريحاً جُرِحَ عنده فوضَعَهُ في سيَّارته وعاد لكي يضعه عندنا في مأمن وكان الحاجز بيننا شارع الحاج حسين أو الشَّارع الذي يربطُ بين الجسر الجديد وجسر السَّريع.

فوقف على الحاجز الآخر وقال أريدُ أن أعبَرَ إليكم فقال له الأخ عبد الهادي لقد عبرتَ عدَّة مرات هذا اليوم والدبَّابات انتبعت إليك وأخاف عليك فلا تعبر، قال عندي جريح سيموت والله الموفق، فتقدَّم أبو همام يقودُ السيَّارة وفتح أبو ناصر نار الـ B.K.C على الدبابة كالعادة، وقبل أن يصل إلى الجهة الأخرى بمتريين استقرت قذيفة دبابة في السيَّارة فاستشهد أبو همام في الحال وقُطعت قدم أبو ناصر فأخذ يكبّر ثم تشهَّد وانتقل إلى رحمة الله أمام عين عمه أبي عبد الله الشَّامي، ومن العجائب التي تُحكى وليعلم النَّاس أن الله هو الحافظ، نجح الجريح وقُتِلَ حاملوه حيث نزلَ من السيَّارة بسرعة وزحفَ إلينا، ونجا من الموت بأعجوبة والله قادر غالبٌ حكيم فأصاب الجميع همَّ وغمٌّ لا يعلمُ به إلا الله حيث فقدت المدينة في أحلك المواقف أهمَّ وأجراً قادتها أسأل الله أن يُلحِقنا به ولا يجرمنا أجره وأن يجمعني به في جنَّات صِدْقٍ عند مليكٍ مقتدر.

و لا أظنك يا أخي الكريم نُسيَّتَ أختيك: أهل أبي عبد الله وابنته زوجة أبي ناصر، وكيف كان وقع الحال على المرأة وابنتها.

فالأم فقدت زوجها في بلاد لا عمَّ ولا خال، ولا أخ ولا حتى مأوى يأمنون فيه، فقد تفضَّلَ عليهم وعلى زوجتي أخ كريم وأجلسهم في بيته إلا أنه لفرط خوفه عليهم دهنَ الزَّجاج باللون الأسود وأغلق عليهم جميع المنافذ حتى لا يخرج أي صوت إلى الخارج.

وكان الخبر قد خرج مع من خرج من الفلوجة أن أبا عبد الله حيٌّ يُرْزق وأنه خرج جريحاً إلى منطقة الصقلاوية وأن العبد لله قُتِلَ شهيداً أو أتى ما زلت مفقوداً وجلست أم عبد الله وابنتها يُصبران أهلي.



وفجأة خرجتُ من الفلوجة بعد حرب السبعين يوماً وفوجيء الجميع بوجودي حي وباستشهاد أبي عبد الله وزوج ابنته، بقيَ عليّ وأنا مجروحٌ في صاحبي أن أُخبر زوجته الغريبة المختبئة وابنتها نبأ الشهيدين وفعلتُ، وما أردتُ، وحدثَ ما توقعتُ، فقد بكتِ البنتُ على حادثة سنّها على زوجها حتى قطعت أكبادي فهي ابنتي وأعرفها جيّداً قبل الحجاب، ولم أستطع معها حلاً إلا أن أدعو الله لها ولأمّها وكافة أخواتها أن يحفظهم من كل مكروهٍ وسوءٍ وأن يُبعدَ عنهم مكرَ الأعداء ومكرَ الجواسيس، وللعلم فهما الآن في مأمنٍ والحمدُ لله قد ذهبَ عنهم بعض ما وجدوا والحمد لله على النسيان ولطف الله بعباده.

وكتبه

أبو اسماعيل المهاجر